التجلّيات الثقافية في ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري

د.عماد جغيم عويد العبودي

كلية التربية / جامعة ميسان

ملخص البحث

حاول هذا البحث مقاربة ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري ، للوقوف على أهم التجلّيات الثقافية المبثوثة به ، وقد جعل الباحث من النص الشعري أداةً معرفيةً كاشفةً تقوم باضائة ما خارج النص ؛ للوقوف على ثقافة المعري المتمظهرة في النص الشعري .

وحاول الباحث تفكيك البنى الثقافية في النص المعالج ، والتركيز على أثر الاستعارات الثقافية في العملية التأويلية التي قام بها شرّاح السقط . ووجد الباحث إن الشحنات الثقافية العالية التي بثّها المعري في السقط كان لها الأثر الكبير في اختلاف الشرّاح في تأويل الأبيات الشعرية ، وخاصةً إذا أتكأ في استعاراته الثقافية على المعارف التأريخية ، فنجد الثيمة الثقافية تلقي بظلالها على المعنى الشعري المترشح ، وهو ما جعل آراء الشرّاح تتباين حتى تصل في بعض الأحيان إلى حد التقاطع .

المقدمة

من السهل التعرف على ثقافة المعري بالرجوع إلى المصادر التي ترجمت له مثل كتاب ابن العديم (588–660 هـ) ، الأنصاف والتحري في دفع الظلم والتجري عن أبي العلاء المعري ، فقد أورد فصلاً كاملاً في اضطلاع المعري بالعلم والأدب ومعرفته باللغة ولسان العرب ،[1] كما ويورد ياقوت الحموي (ت626هـ) في معجم الأدباء ترجمة شافية كافية للمعري[2]، بالإضافة إلى كتب أخرى يمكن الرجوع إليها للوقوف على ثقافة المعري ، لكن من الصعوبة قلب المعادلة التي سار عليها القدماء ، فعندهم ما خارج النصّ يُعتمد عليه في أضائة النص ، فهم ينطلقون من خارج النصّ للوصول الى نتائج اقرب ما تكون إسقاطية .

أما الباحث فيحاول أن يجعل النصّ يضطلع بمهمة اضائة ما خارج النصّ ، ليثبت أن ديوان سقط الزند هو المنجز المعرفي الدال على تملك المعري لثقافةٍ واسعة اشتملت على الكثير من العلوم والمعارف .

كما سيسلط الباحث الضوء على أثر الشحنات الثقافية في عملية تلقي شعر المعري (سقط الزند) ، وتقوم رؤية الباحث المنهجية على تفكيك البنى الثقافية في النصّ المعالج (سقط الزند) والوقوف على أهم التمظهرات الثقافية ، والتركيز على أثر الاستعارة الثقافية في عملية التأويل.

والبحث سيسير وفق المسارات الثقافية الآتية :

القرآن الكريم .
علم الحديث .
الأمثال العربية .
الأساطير .
علم الفلك .
المعارف التاريخية .
الثقافة النحوية والصرفية والعروضية .
ثقافات أخرى .

- القرآن الكريم

يحمل المعري ثقافةً قرآنيةً واسعةً ، ظهرت واضحة في ديوانه سقط الزند ، وقد جاء ذلك من خلال اتكائه على النص المقدس –الذي يحمل إيحاءات دلالية وفنية – لإثراء تجربته الشعرية .

وتجلّت ثقافة أبي العلاء القرآنية في ديوانه سقط الزند بمظهرين :-

الأول :- الاقتباس من آيات القرآن الكريم .

الثاني :- تضمين قصص الأنبياء .

ولم يكن توظيف المعري للمعارف القرآنية ساذجاً فجاً ، وإنما كان بارعاً لطيفاً ، وقد جاء ذلك عبر صنعةٍ متقنة .

ومنه قوله :-

وإذا تَلّها الفَتى بِسَراةِ الثْ تَلّ سالثْ حتى تُبِنّ السّريرا[3] (م)

وهو مبني على قوله تعالى : ((وتلَّهُ للجبين .... الآية))[4]

وقوله :-

رأثْ كَوْثَرَيْ رِسْلٍ وخَمْرٍ بجَنّةٍ شآمِيّةٍ ما أُكْلُ ساكِنِها خَمْط[5]

وبنية البيت قامت على قوله تعالى ((إنَّا أعْطيناكَ الكوثرَ))[6] ، وقوله تعالى ((وبدَّلناهُم بجنَّتيهم جنَّتين ذوَاتى أكلٍ خَمْطٍ)) [7]

أما في قصيدته التي قالها وهو ببغداد متشوقاً فيها إلى الشام والتي مطلعها:-

طَرِبْنَ لضَوْءِ البَارِقِ المُتَعالي ببَغدادَ وهْناً ما لَهُنّ وما لي [8]

فقد قام بتوظيف جميل لقصة السامّري صانع العجل الذي أضلَّ بني إسرائيل ، بقوله :-

بكى سامرِيٌّ الجَفْن إن لامسَ الكَرَى له هُدْبَ جَفْنٍ مَسّهُ بسِجال [9]

يقول التبريزي – شارح السقط[*] – :- ((أي كأنهُ سامري الجفن ،إن مسهُ النوم أغتسل بالدمع . وهذا مبنيٌ على قوله سبحانه وتعالى في قصة السامري : (فأن لك في الحياة أن تقول لا مساس) . ويقال إن للسامرة بركة ، فإذا لصق بهم غيرُهم مضوا إلى تلك البركة ، فألقوا فيها أنفسهم يتطهرّون بذلك . فكأن الجفنَ قد اعتقد هذا في الجفن الآخر ، فإن نام والتصق به غسله بسجالٍ من الدمع)) [10] .

أما تضمين قصص القرآن في سقط الزند فمثل قوله متأسفاً على مفارقته بغداد ، وقد أشار إلى قصة آدم وحواء (عليهما السلام) وهبوطهما من الجنة .

وما سارَ بي إلاّ الذي غَرّ آدَماً وحَوّاءَ حتى أدرَكَ الشّرَفَ الهَبْطُ [11]

ونراه قد ضمن قصة هاروت وماروت في معرض حديثه عن قرطيّ صاحبته ، وفيه توظيف طريف للقصة القرآنية :-

نَكّسْتِ قُرْطَيْكِ تَعذيباً وما سَحَرا أخِلْتِ قُرْطَيْكِ هاروتاً وماروتا [12]

يقول التبريزي في تعليقه على البيت : ((أي عذبتِ قرطيك وليسا ساحرين . ونقلت الرواة أن هاروت وماروت لمّا عصيا خُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فنُكّسا على رؤسهما معلّقين ببابل ، لا يزالان كذلك إلى يوم القيامة))[13] .

وتأسيساً على ما تقدم يمكن للباحث أن يزعم :ان ثقافة المعري القرآنية لم تكن سطحية وإنما كانت بعيدة الأغوار في منظومته الفكرية ويمكننا أن نحس ذلك من خلال حرية المعري في تعامله مع النص المقدس ومعارفه [14].

- علم الحديث

من التجليلت الثقافية المتجلية في سقط الزند ، وقد ظهر بمظهرين أيضاً :

الأول : الإشارة إلى أحاديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) .

الثاني : استعمال مصطلحات علم الحديث .

فمن المظهر الأول قوله :-

كم قُبْلَةٍ لكِ في الضّمائرِ لم أخَفْ فيها الحِسابَ لأنها لم تُكْتَبِ[15]

يقول البطليوسي[**] : ((هذا مبنيٌ على قوله (ص) (عُفي لأمتي عمّا حدثت به نفوسها ما لم تتكلم به أو تعمل)))[16]

وقوله :-

ولا تَنْسَني في الحَشرِ والحوضِ حوْله عصائبُ شتّى بينَ غَرٍّ إلى بُهْمِ[17]

يقول الخوارزمي _ شارح السقط _ : ((هذا مبنيٌ على قوله عليه السلام في أمته : (يحشرون غُراً محجلين من آثار الوضوء ، وسائر الأمم يُحشرون بُهْماً))) [18]

أما المظهر الثاني من مظاهر ثقافة المعري الحديثية التي ظهرت في السقط ، فقد جاء عبر استعماله لمصطلحات علم الحديث ، ومنها قوله :-

رَاوِياً للحَديثِ لم يُحْوِجِ المَعْـ رُوفَ مِنْ صِدْقِهِ إلى الأسْنادِ [19] **(م)**

فقد ذكر رواية الحديث والإسناد – وهو اتصال الحديث بالرواة – يقول الخوارزمي[***]: ((في البيت إيحاء الى أن المراسيل أضعف من المسانيد)). [20]

-الأمثال العربية

لقد كانت للمعري معرفةً واسعةً في الأمثال العربية ، خاصةً في ديوانه سقط الزند _مدار البحث _ وظفها في شعره أيّما توظيف ، فلم يكن تعامله مع المثل بوعيٍ سكوني ؛ وإنما أختار التلاعب بمحتوى الأمثال ؛ لإنتاج دلالات جديدة تنير التجربة الشعرية .

ومن ذلك قوله :-

طَلَبتُ يَقيناً مِنْ جُهَيْنَةَ عنهُمُ ولن تخبريني يا جُهينَ سوَى الظّنّ [21]

فقد بنى المعري بيته على المثل المشهور ((عند جُهينة الخبرُ اليقين))[22] . فبعد ما كان اليقين يطلب من جُهينة ، وجدناها لا تخبر سوى الظن عند المعري .

ومن تضمين الأمثال كذلك قوله :-

لا بُدّ للحَسناءِ من ذامٍ ولا ذامٌ لنَفسِي غَيرَ سَيّئِ بَخْتِها [23]

فقد ضمن المثل العربي (لا تعدم الحسناء ذاماً)، ((وأصل المثل أن حُبّي بنت مالك بن عمرو العَذْوانية ، هُديت الى زوجها مالك بن غسان ، فقالت أمها لنسوتها : ((إن لنا عند المُلامسة رشحة لها هِنة ، فمسّحِي أعطافها بما في أصدافها)) فأعجلها زوجها ، فلما أصبح قيل له : كيف وجدت طرُفتك ؟ فقال : ما رأيت كاليله امرأة ، لولا رويحّةٌ أنكرتها . فقالت (المثل) ويضرب في قلّة خُلُوّ الأشياء عن المعايب))[24] .

ولمعرفة المعري الواسعة بالأمثال العربية ، وتوظيفها في شعره وخاصةً في ديوانه سقط الزند بشكل متقن أدى إلى صعوبة التأويل الدقيق للبيت الشعري المشتمل في بنيته على مَثل عربي ومن ذلك اختلاف تأويل الشرّاح[25] لبيت السقط :-

إذا أنا عالَيْتُ القُتودَ لِرِحْلَةٍ فدونَ عُلَيّانَ القَتَادَةُ والخَرْطُ [26]

_ الأساطير

لقد كان المعطى الأسطوري حاضراً في منجز المعري الشعري ، بصورةٍ لافتةٍ ، لا من حيث الكم ولكن من حيث الكيف ، إذ نراه يوظفها توظيفاً دقيقاً يرتكز على استغلال الجنبين الإيحائي والعجائبي ليجذبها إلى عالم الواقع .

مثل قوله :-

أرى العَنْقاءَ تَكْبُرُ أن تُصادا فعانِدْ مَنْ تُطيقُ لهُ عِنادا[27]

فقد أتكأ على أسطورة العنقاء التي يضرب بها المثل ، وتزعم العرب إنها كانت طائراً عظيماً فاختطفت جارية أو صبياً فدعا عليها حنظلة بن صفوان فغابت الى اليوم .[28]

ونراه قد اتخذ المعطى الأسطوري وسيلةً لإثراء الصورة الشعرية ، ولبيان ما يكتنفه من شوقٍ إلى الشام وهو ببغداد ، فقال :-

إذا لاحَ إيماضٌ سَتْرُت وُجوهَهَا كأنّيَ عَمْروٌ والمَطِيُّ سَعالي [29]

وقد أعتمد على أسطورة تزوج عمرو بن يربوع بن حنظلة من سعلاة ، ((فقال له أهلها ، أنك ستجدها خير امرأةٍ ما لم ترَ برقاً ، فكان عمرو بن يربوع إذا لاح البرقُ سترها عنه ، وولدت له أولاداً ، فغفل ليلةً ولاح البرق فقعدت على بكرٍ وقالت :-

أمِسك بنيكَ عمرو إني أبقُ بَرْقٌ على أرض السَّعالي ألِقُ [30]

وسارت عنه فلم يرها بعد ذلك))[31] ، وقد أعتمد المعري على الأسطورة ليثري الصورة الشعرية ، ويستفز المتلقي لكي يفهم ما يقوله المعري برجوعه إلى الأسطورة والقصة التي ارتبطت بها .

واستعمل أبو العلاء المعري المعطى الأسطوري في داليته الخالدة ،إذ وظفها عند الحديث عن فلسفة الحزن ، والأسطورة التي نحن بصددها أسطورة "الهديل "وهو فرخ كان على عهد نوح فمات ضيْعة وعطشاً ، فالحمام ينحنَّ عليه في كل زمانٍ ومكان .

فقد قال :-

أَبَناتِ الهَديلِ أَسْعِدْنَ أَوْ عِدْ نَ قَليلَ العَزاءِ بالإِسْعَادِ (م)

إيه للّـهِ دَرّكُنّ فأَنْتُـنّ اللْ لَوَاتي تُحْسِنّ حِفْظَ الوِدادِ

ما نَسيتُنّ هالِكاً في الأوانِ ال خَالِ أَوْدَى مِنْ قَبلِ هُلكِ إيادِ (م)

بَيْدَ أَنّي لا أَرْتَضِي مَا فَعَلْتُنْ نَ وأَطْواقُكُنّ في الأَجْيَـادِ (م)

فَتَسَلّبْنَ وَاسْتَعِرْنَ جَميعـاً منْ قَميصِ الدّجَى ثيابَ حِدادِ

ثُمّ غَرِّدْنَ في المَآتِمِ وانْدُبْ نَ بِشَجْوٍ مَعَ الغَواني الخِرادِ [32] **(م)**

-علم الفلك

للعرب معرفة واسعة بعلم الفلك ، ونراهم قد حازوا قصب السبق في هذا المضمار ، فهم أول من استخدم المراصد في تاريخ علم الفلك . [33]

أما المعري فنراه قد أخذ من هذا العلم وتجلى واضحاً وبشكلٍ لافت في ديوان سقط الزند ، ولكن من الغريب بل ومن العجيب أن نرى علم الفلك في منجز المعري الثقافي ، فمن البديهي أن علم الفلك يعتمد بالدرجة الأولى على حاسة البصر ، والمعري فاقد لها ، فكيف تمكن المعري من الحصول على الثقافة الفلكية ؟ هل عن طريق السماع أم عن طريق آخر؟

ومن ثقافة المعري الفلكية قوله :-

أبي السّبعَةَ الشُّهْبِ التي قيلَ إنّها مُنَفِّذَةُ الأقدارِ في العُرْبِ والعُجْمِ [34]

فقد ذكر الأقمار السبعة ، زحل ، والمشتري ، والمريّخ ، والشمس ، والقمر ، والزُّهرة ، وعطارد .
ومن أشارات المعري لمنازل القمر ، قوله :-

يا سَعْدَ أَخْبِيَةِ الّذينَ تَحَمَّلوا لمّا رَكِبْتِ دُعيتِ سَعْدَ المَرْكَب [35]

يقول البطليوسي – شارح السقط – ((سَعد الأخبية : منزلة من منازل القمر .)) [36]

وقد أدى استعمال المعري للمعارف الفلكية في بيت السقط إلى اختلاف تأويله عند شرّاح السقط [37].

-المعارف التاريخية

برزت عضلات المعري المعرفية في ديوانه سقط الزند – مدار البحث – وخاصة المعارف التاريخية ، والتي كانت من الكثرة والتشعب مما يصعب الوقوف على جميعها إلا من خلال تفكيك منظومة المعري التاريخية ، واستكناه دوران الاستعارة الثقافية في مدونته الشعرية ، وهذا لا يتم إلا عبر تقسيم المعارف التاريخية إلى :

1- قصص العرب .
2- القبائل والأنساب .
3- أخبار الشعراء وقصصهم .

فمن معرفته بقصص العرب قوله :-

ولولا سَعِيدٌ باتَ نَدمانَ كَوْكَبٍ يُريقُ له في الأَرْضِ شطْرَ مُدامهِ [38]

فقد ذكر قصة جذيمة الابرش الذي كان ينادم الفرقدين ، فيشرب كأساً ويصب لهما في الأرض كأسين ، وكان يقول : أن الملك لا يليق به أن ينادم أحداً من الناس لان منادمة الناس جرأةٌ عليه . [39]

أما معرفة المعري بالقبائل العربية وأنسابها ، فقوله :-

أطاعك هذا الخلق خوفاً ورغبةً فواعجباً من تغلب ابنة وائل

أكان لها في غير عدنان نسبة فتأمل أن تعصيك دون القبائل [40]

وفيه إشارة إلى اختلاف النسابون في القبائل العربية اليمنية .

وقوله :- **لتذكر قضاعة أيّامها وتُزْهَ بأمْلاكها حِمْيَرُ**[41]

فقد جعل (قُضاعة) من اليمن ،((وقد أختلف النسابون في قُضاعة ، فزعم بعضهم أن قُضاعة من ولد معدّ بن عدنان ، وذكر قوم أنها من ولد مالك بن حِمْير)).[42]

وقد أدى استعمال المعري لثقافته الواسعة في علم الأنساب والقبائل إلى التشويش على شرّاح شعرهِ ، الذي حَمل شحنات ثقافية عالية ، مما جعلهم يتخبطون في تأويل الأبيات حتى وصلّ بهم الحد إلى تخطأة بعضهم للبعض الآخر ، ومن هذا الباب قول أبي العلاء :-

قوْمٌ من الوَبَرِيّينَ الذين غَنُوا في البِيدِ يَبْنُونَ في أرْجائِها الوَبَرا [43]

فقد فسّر التبريزي (الوَبَرِيّينَ) بانهم أهل الوبر ، أما الخوارزمي فقد قال : ((الوبريونّ منسوبون الى وَبَرة ، هو ابن تغلب بن حُلوان ، ووبرة جدة تيم اللات ، الذي كان عند ابي العلاء ديوان شعره .....ومن فسّر (الوبريين) بأهل الوبر فقد سها))[44] .

ومعرفة المعري بأحوال الشعراء وقصصهم واسعة جداً ، وقد ظهر هذا جلياً في ديوانه سقط الزند ،وتعدى ذلك إلى إلمامه بالكثير من أشعارهم ، ويمكننا أن نذكر بعضاً من ذلك من مثل قوله :-

مَن قال صادِقْ لِئامَ الناسِ قلتُ له قوْلَ ابنِ أسلَت قد أبلَغتِ أسْماعي

... ولا هَدِيّةَ عِنْدي غيرُ ما حَمَلَتْ عن المُسيَّبِ أرْواحٌ لقَعْقاعِ

ولم أكُنْ ورَسولي حينَ أُرْسِلُـهُ مثْلَ الفَرَزْدَقِ في إرْسالِ وَقّاع [45]

فابن الاسلت ، هو أبو قيس ، والمعنى قوله :-

قالَت وَلَم تَقصِد لِقيلِ الخَنا مَهلاً فَقَد أَبلَغتَ إسماعي

والمسيب بن علسٍ وهو خال اعشى قيس ،وكان مدح القعقاع بن مَعْبَد التميمي ، بالقصيدة العينية ، والتي فيها قوله :-

فَلأهدِيَنَّ مَعَ الرِياحِ قَصيدَةً مِنّي مُغَلغَلَةً إلى القَعقاعِ

أما "وقّاع " فهو غلام الفرزدق كان يوجهه في أشياء ليست بالجميلة .[46]

أذن فمنظومة المعارف التاريخية في ديوان سقط الزند كانت واسعة متشابكة الأطراف [47]،أدت إلى أن يقع الشرّاح في شرك الحيرة في بعض المواضع ، وأسست كذلك الى بلورة ونضوج مشروع ثقافي متكامل أظهره المعري في لزومياته .

- **علم الفقه**

نرى ثقافة أبي العلاء المعري الفقهية واضحة المعالم في ديوانه سقط الزند ، وقد تجلّت في منجزه الشعري بمظهرين :-

الأول : ذكر مصطلحات وألفاظ الفقهاء .

الثاني : ذكر الآراء الفقهية .

فمن الأول قوله :-

اسْمعْ أبا حامدٍ فُتْيا قَصِدتَ بها مِن زائِرٍ لجَمِيلِ الوُدّ مُبْتَاعِ [48]

فقد ذكر الإفتاء وهو من مصطلحات أهل الفقه .

ونراه يذكر مصطلحي " ألاجتهاد والقياس " وهما من مصطلحات علم الفقه بقوله :-

أسَفٌ غَيْرُ نافِعٍ وَاجْتِهادٌ لا يُؤدّي إلى غَنَاءِ اجْتِهادِ [49]

وقوله :-

قِسْنا الأمورَ فلمّا نال رُتْبَتَه مِن السّعادةِ سَلّمْنا ولم نَقِسِ [50]

أما الثاني ، فنجد المعري يذكر آراء الفقهاء في المسائل الفقهية ، ويمكن للباحث أن يزعم من خلال تبني المعري لآراء الشافعي بأنه شافعي المذهب ، ومن ذلك قوله :-

لغاسِلِ الكفّ من أعراضِها مئةً وما يُجاوِزُ سبْعاً غاسِلُ النّجَسِ [51]

فعلى المذهب الشافعي ان لُعاب الكلب إذا أصاب عيناً من الأعيان وجب غسلهُ سبعُ مراتٍ إحداها تعفيرهُ بالتراب .[52]

ولعلنا لا نغالي إن قلنا : ان المعري كان فقيهاً وذلك عبر إعطاء الرأي الفقهي الصحيح ، من مثل قوله :-

في مَعْشَرٍ كحِمارِ الرّمْيِ أجمعُها ليْلاً وفي الصّبْحِ أُلْقيها إلى القاعِ [53]

ويعقب الخوارزمي – شارح السقط – قائلاً : ((ان كثيراً من الفقهاء يتوهمّون أن الإفاضة من المزدلفة إلى منىً ، ورمْي جمرة العقبة ، بعد طلوع الشمس من يوم النّحر . والصواب أنهما بعد إسفار القُرص من ذلك اليوم ، فلذلك جعل أبو العلاء رَمْي الجمار في الصبُّح ، فللّه درُّه ثم لله درُّه، من نحرير لا يغيض بحرهُ .))[54].

. الثقافة النحوية والصرفية والعروضية

برزت ثقافة المعري النحوية والصرفية والعروضية في سقط الزند أيمّا بروز ،وقد ظهرت معرفته الواسعة في ثنايا ديوانه ،فضلاً عمّا ظهرت في مؤلفاته غير الشعرية [55].

فمن الثقافة النحوية قوله :-

تَئنّ ونَصْبي في أنينِكَ واجِبٌ كما وَجَبَ النّصْبُ اعترافاً على إنّ [56]

وقوله :-

ولي حاجَةٌ عندَ العِراقِ وأهْلِهِ فإنْ تَقْضِياها فالجزاءُ هوَ الشّرْط [57]

فالشرط والجزاء معروفان في النحو .

أما الثقافة الصرفية فقوله :-

ويُلْفَى المَرءُ في الدنيا صحيحاً كحَرْفٍ لا يُفارِقُه اعْتِلالُ [58]

فقد ذكر الحرف المعتل ، يقول التبريزي –شارح السقط – :((قوله(كحرفٍ لا يفارقه اعتلال)، يعني كحروف المد واللين التي هي الألف والواو والياء ،إذا أنضم ما قبل الواو وانكسر ما قبل الياء)) [59].

وثقافة المعري العروضية طهرت في قوله :-

ودادي لكمْ لم ينْقَسمْ وَهْوَ كامِلٌ كمَشْطورِ وَزْنٍ ليس بالمُتَصرّع[60]

فالمعري هنا قد ذكر مصطلحين من مصطلحات علم العروض ، هما " التصريع والوزن المشطور "، فالتصريع ((هو ان يُقسم البيت نصفين ، ويُجعل آخر النصف من البيت كآخر البيت اجمع وتُغير العروض للضرب)) [61]، أما الشطور من الاوزان فهو ((ما سقط منهُ شطره)).[62]

وقد أدى استعمال المعري لثقافته العروضية في بيت السقط إلى اختلاف الشرّاح في التأويل.[63]

ومن ثقافته العروضية كذلك قوله :-

على راحٍ من الآدابِ صِرْفٍ ونُقْلٍ من بَسِيطٍ أوْ طَوِيل
وقد يُقْوي الفَصِيحُ فلا تُقابِلْ ضَعِيفَ البِرّ إلاّ بالقَبُول
فإنّ الوَزْنَ وَهْوَ أتَمُّ وَزْنٍ يُقامُ صَغاهُ بالحَرْفِ العَليل [64]

فنراه قد استعار المصطلحات العروضية " أسماء الأوزان وعيب القافية " ونقلها للتعبير عن موضوعة الصداقة ، يقول البطليوسي : ((ان الفصيح قد يُقوي في شعره فيغُتفر إقواؤه ، فكذلك اغتفر لصديقك ما بعث به وإن قلّ عطاؤه ،.....والشي القليل يُقنع به على قلّته ، كما أن الوزن التام من الشعر يحُتاج في تمامه إلى حرف العلة على ضَعفه.))[65]

. ثقافات أُ خرى

فضلاً عمّا وجدناه من معرفة المعري بالكثير من العلوم والمعارف التي سبقت الإشارة إليها ، وجد الباحث شذرات من ملامح ثقافية أُ خرى بثّها المعري في ديوانه ، منها علم الفلسفة ، فقد ذكر مصطلحات هذا العلم مثل(الجواهر ،والاعراض ، والكُنه)**** ، في قوله :-

وصاحَبوها بأعراضٍ جَواهِرُها كجَوْهرِ البدرِ لا يَدْنو من الدّنَس (66)

وقوله :-

وذي أمَلٍ تَبَصَّرَ كُنْهَ أمْرٍ فقَصَّرَ بَعْدَما أشْفى وَكادا (67)

ومن استعماله للثقافة الفلسفية كذلك قوله :-

فلستِ أوّلَ إنْسانٍ أضَلَّ بهِ إبليسُ مَنْ تَخِذَ الإنسانَ لاهوتا (68)

ولاهوت بمعنى إله ، وهي كلمة يستعملها الفلاسفة ، فيقولون : لاهوتي وناسوتي .(69)

ومن ثقافة المعري الفلسفية التي تبدو أكثر عمقاً قوله في داليته :-

والّذي حارَتِ البَرِيّةُ فِيهِ حَيَوَانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِن جَمادِ (70)

وفيه نظرة فلسفية عميقة في علاقة الروح بالجسد ، يقول البطليوسي في تعليقه على هذا البيت :((يريد ان الجسم مواتٌ بطبعه ، وإنما يصير حيواناً حساساً متحركاً باختيار، باتصال النفس به ، فاذا فارقته عند الموت عاد إلى طبعه ، فالحياة للنفس جوهرية وللجسم عرضية فلذلك يَعدَم الجسم الحياة إذا فارقته النفس ولا تعدمها النفس)).(71)

وللمعري معرفة في اللغة السريانية ، وقد ظهر ذلك في قوله :-

تَشتاقُ أيّارَ نفوسُ الوَرَى وإنّما الشّوْقُ إلى وَرْدِهِ (72)

فكلمة " آيار" سريانية . وتعني شهر الربيع .

ومن ثقافته الفارسية التي ظهرت في السقط قوله :-

وقد تفرّسْتُ فيكَ الفَهْمَ مُلْتَهِباً من كل وجهٍ كنارِ الفُرْسِ في السَّذَقِ (73)

فاالسّذق : عيد للفرس يوقدون فيه النار ليلاً .وهناك إشارة لطيفة إلى المجوس اللذين كانوا يعبدون النار وهم المجوس ، قوله :-

يَصْلى إذا حارَبَ شمسَ الظُّبى فِعْلَ مَجوسيّ الضّحى المُسلِمِ (74)

ومجوسيّ الضُّحى "الحرباء " ، لأنها تدور مع الشمس فكأنها تعبدها .

الخاتمة ونتائج البحث

بعد هذهِ الرحلة الطريفة والممتعة مع منجز المعري الشعري (سقط الزند)، وبعد تفكيك المنظومة المعرفية التي حملها السقط ، يمكن إجمال أهم النتائج التي توصل إليها الباحث بالنقاط الآتية :-

-الثقافة القرآنية للمعري ظهرت في سقط الزند بمظهرين :

الأول : الاقتباس من آيات القرآن الكريم .

الثاني : تضمين قصص الأنبياء .

. كانت للمعري معرفة واسعة في الأمثال العربية ، وقد استطاع التلاعب بمحتوى الامثال لإنتاج دلالات جديدة انارة تجربته الشعرية .

. للمعري اطلاع واسع بالأساطير العربية وقد نجح في توظيفها في سقط الزند عبر ا ستغلاله للجانبين الإيحائي والعجائبي للأساطير .

. لقد كانت المعارف التاريخية وعلم الفلك أكبر ركناً من أركان ثقافة المعري في السقط.

. كان للشحنات الثقافية العالية التي بثّها المعري في السقط الأثر الكبير في اختلاف الشرّاح في تأويل الأبيات الشعرية ، وقد لاحظ الباحث ان المعري إذا استعمل الامثال العربية أو المعارف التاريخية يُربك الشُرّاح فتتباين تأويلاتهم حتى تصل إلى التقاطع .

الهوامش

1 يُنظر : كتاب الأنصاف والتحري ضمن كتاب تعريف القدماء بابي العلاء : 569- 574 ، ومن الكتب التي عُنيت بإبراز ثقافة المعري : مع أبي العلاء في رحلة حياته ، د. عائشة عبد الرحمن ، أمراء الشعر العربي :

أنيس المقدسي ، الأدب في موكب الحضارة الإسلامية : د. مصطفى الشكعة ، فصول في الشعر ونقده : د. شوقي ضيف ، تاريخ الشعر في العصر العباسي : يوسف خليف ،.... الخ

2 معجم الأدباء : ياقوت الحموي الرّومي (ت626هـ) , تحقيق : إحسان عباس , دار الغرب الإسلامي , ط(1) , بيروت ـ لبنان , 1993م : 2/583–684.

3 شروح سقط الزند : تحقيق : مصطفى السقا وآخرون بإشراف د. طه حسين ،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ،ط (4) ،2002 م : 4 /1787 . وسأشير إليها بكلمة (الشروح) .

4 سورة الصافات ، آية (103) .

5 الشروح : 1618/4 . خَمْطٌ : ضرب من الأراك له حمل يؤكل .

6 سورة الكوثر ، آية (1) .

7 سورة سَبا ، آية (15) .

8 الشروح : 3 / 1162 .

9 نفسه : 3 / 1190 .

* . هو أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن بسطام الشيباني التبريزي , كان إماماً في النحو واللغة والأدب , أخذ عن أبي العلاء , وابن برهان , وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم , وأخذ عنه الجواليقي والسلفي . له شروح على الحماسة وشعر المتنبي وأبي تمام , ولد سنة (421 هـ) وتوفي سنة (502 هـ) . ينظر : معجم الأدباء : 6 / 2450 .

10 –نفسه : نفسها .

11 – نفسه : 4 / 1632 .

12 – نفسه : 4 / 1581 .

13 – نفسه : نفسها .

14 – للوقوف على ذلك ، ينظر : الشروح : 2 / 481 ، 922 ، 3 / 991 – 993 ، 951 ، 1221 ، 1333، 4 /1582 ، 1592 ، 1598 ، 1603 ،1737 ، 1753 ، 1754 ، 1810 .

15 – الشروح : 3 / 1130 .

**. هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي . ولد بمدينة بطليوس سنة (444هـ) وتوفي ببلنسية سنة (521هـ) . ينظر : وفيات الأعيان : 232/3 .

16 – نفسه : 3 / 1129 .

17 – نفسه : 3 / 970 ، وينظر كذلك : 3 / 1399 .

18 – نفسه : نفسها .

19 – نفسه : 3/ 988 . وينظر كذلك : 4 / 1699 .

***. هو القاسم بن الحسن بن محمد الخوارزمي , كان شاعراً خطيباً , جليل القدر , ولد سنة (555هـ) وقتل بيد التتار سنة (617هـ) . ينظر : معجم الأدباء : 5 / 2191 , وشروح سقط الزند : 1 / ز .

20 – نفسه : نفسها .

21 – نفسه : 2 / 925 .

22 – مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني ، تحقيق : د. قصي الحسين ، ط (2) ، منشورات دار ومكتبة الهلال ، بيروت / لبنان ، 2003 م : 2 / 5 .

23 – الشروح : 1031/3 ، وينظر كذلك : 1011/3، 4 /1429 ، 1468، 1773 .

24 – نفسه : نفسها .

25 – للوقوف على اختلاف التأويل بين شرّاح السقط ينظر : الشروح : 4 /1641 –1645 .

26 – الشروح : 4 / 1641 .

27 – نفسه : 2/ 553 .

28 – ينظر : نفسه : نفسها .

29 – نفسه : 3/ 1167 .

30 – رسالة الصّاهل والشاحج : لأبي العلاء المعري ،تحقيق : د. عائشة عبد الرحمن ،ط (2) ، دار المعارف بمصر ، 1984 م: 294 .

31 – الشروح :3 /1167.

32 – نفسه : 3 / 980 –984 .

33 – للوقوف على تاريخ الفلك عند العرب ، ينظر : في تراثنا العربي الإسلامي : د. توفيق الطويل ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،1985 م :235 –238 .

34 – الشروح : 3/ 957، وينظر : 1 /313 .

35 – نفسه : 3/ 1126 .

36 – نفسه : 1127/3 . وللاستزادة من معارف أبي العلاء الفلكية ، ينظر : 281/1، 421، 426، 430، 433، 435، 437، 448 ، 451 ، 452 ، 3 / 1321، 1325 ، 1328 ، 4 / 1522 ، 1523 ، 1530 ، 1598 ، 1613 ، 1697 ، 1737 ، 1754 .

37 – للوقوف على اختلاف التأويل ، ينظر : 3 / 1126– 1128 .

38 – الشروح : 2 /488، وينظر كذلك :4 / 1821 .

39 – ينظر : نفسه : نفسها .

40 – نفسه : 3 / 1071 .

41 – نفسه : 3 / 1087 .

42 – نفسه : نفسها .

43 – نفسه : 4/ 1698 .

44 – نفسه : نفسها .

45 – نفسه : 2/ 756 ، 759 ، 760 .

46 – ينظر : نفسه : نفسها .

47 – للوقوف على أمثلة أخرى للمعارف التاريخية في ديوان سقط الزند ، ينظر : 2/ 256 ، 856 ، 917 ، 3/ 986 ، 1086 ، 1114، 1276 ، 1315 ، 1334، 1337 ، 1343 ،4، 1348/ 1573،1564،1555،1549، 1603،1601،1599 ،1608، 1664،1654،1613، 1700، 1757، 1762، 1766، 1767، 1800.

48 – الشروح : 2/ 753.

49 – نفسه : 3/ 991.

50 – نفسه : 2/ 693 .

51 – نفسه : 694/2 ، وينظر كذلك الصفحات : 746–748 ،إذ نراه يتبنى رأي الشافعي في القصر في السفر .

52 – نفسه : نفسها .

53 – نفسه : 2/ 750 ، وينظر : تجديد ذكرى أبي العلاء : د.طه حسين ،197 .

54 – نفسه : نفسها ، وينظر كذلك : 4/ 1551 .

55 – ينظر على سبيل المثال : (معجز أحمد) وهو شرح المعري لديوان المتنبي .

56 – الشروح : 2 /932 .

57 – نفسه : 1628/4 ، وينظر كذلك : 3/ 1255 16 1367، 4/ 1480 ، 1521 .

58 – نفسه : 4/ 1660 .

59 – نفسه : نفسها , وينظر كذلك : 3/ 1141 ،1142 ،1335.

60 – نفسه : 4/ 1547.

61 – الكافي في العروض والقوافي : تأليف أبي زكريا يحيى المعروف بالخطيب التبريزي : 17 .

62 – نفسه : 101 .

63 – ينظر تباين آراء الشرّاح : 4/ 1547–1548 .

64 – الشروح : 3/1145–1147 , وينظر كذلك : 3/1159، 1195 ، 1196 .

65 – نفسه : 3/1146، 1147 .

****جوهر كل شي ذاته القائمة باعراضة ، ويكون جسماً ويكون غير جسم ، وكُنه الشي حقيقته . ينظر : كتاب التعريفات : علي بن محمد الجرجاني : 64–65 ، 122.

66– الشروح : 2/ 705 .

67 – نفسه : 2/ 807، وينظر : 873 .

68 – نفسه : 4 / 1584 .

69 – ينظر : نفسه : نفسها .

70 – نفسه : 3/ 1004 .

71 – نفسه : نفسها .

72 – نفسه : 1019/3.

73 – نفسه : 2/ 675 .

74 – نفسه : 4 / 1760 .

المصادر

***القرآن الكريم .**

– تجديد ذكرى أبي العلاء المعري : تأليف : د. طه حسين ، تقديم : د. عبد الله التطاوى ، ط (4) ، دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، 2008م.

– تعريف القدماء بأبي العلاء : جمع وتحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، بأشراف ،ا.د. طه حسين ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، ط (4) ، مصورة عن طبعة دار الكتب ، القاهرة ، 2003م.

– رسالة الصّاهل والشاحج : لأبي العلاء المعري ،تحقيق : د. عائشة عبد الرحمن ،ط (2) ، دار المعارف بمصر ، 1984 م.

. شرح ديوان أبي الطيب المتنبي (معجز أحمد) : لأبي العلاء المعري (ت449هـ) , تحقيق : د. عبد المجيد دياب , ط(2) , دار المعارف بمصر , 1992م .

. شروح سقط الزند , تحقيق : مصطفى السقا وآخرون بإشراف : د. طه حسين , مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة , ط(4) 2002م .

. الكافي في العروض والقوافي : الخطيب التبريزي (ت502هـ) , علق عليه ووضع حواشيه وفهارسه : إبراهيم شمس الدين , دار الكتب العلمية , ط(1) , بيروت . لبنان , 2003م .

. كتاب التعريفات : الشريف الجرجاني , دار إحياء التراث العربي , ط(1) , بيروت . لبنان , 2003م .

. في تراثنا العربي الإسلامي : د. توفيق الطويل ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ،1985م.

. مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني (ت539هـ) , تحقيق : د. قصي الحسين , ط(1) دار ومكتبة الهلال , بيروت . لبنان , 2003م .

. معجم الأدباء : ياقوت الحموي الرّومي (ت626هـ) , تحقيق : إحسان عباس , دار الغرب الإسلامي , ط(1) , بيروت . لبنان , 1993م .

. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : لابن خلكان (ت 681هـ) , تحقيق : إحسان عباس , دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع , بيروت , 1968 م .